القومية والوطنية والإسلام

بقلم

السيد عبد الرحمن الحنش

هل هناك قوة أعظم ، ونسبة أفخم ، وفيضا أعم وثقة تغمر القلب ، وفرحة تعلو الوجوه نضارة وحبورية وفخارا ، من فخار المؤمنين الواثقين والمسلمين المطمئنين .

الذين اعتزوا بالنسب إلى الله والانتساب إلى الحق « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين »(١)

الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » .

فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم(٢) » .

إن أعظم مصادر القوة والأنفة أن تخضع لمنهج الله وتعتز بهذا المنهج وتعمل له وتضحى فى سبيله ، وتؤمن به إيمانا مطلقا وتوقن أنك فى ظلاله ومن خلاله موفور الكرامة مرفوع الهامة « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون(٣)

---

(١) المنافقون آية ٨

(٢) آل عمران آية ١٧٣ / ١٧٤

(٣) المنافقون آية ٨

ومن نعم الله العظمى أن العرب والمسلمين هم المجموعة البشرية التى تشغل حيزا من الكرة الأرضية يقع بين المحيط الهندى وخط الأستواء جنوبا والخليج العربى وايران شرقا وجبال طورس وساحل البحر المتوسط شمالا والمحيط الأطلسى غربا .

والبلدان الإسلامية جميعا متجاورة متلاصقة لا يكاد يفصل بين الواحدة والأخرى حواجز جغرافية وحتى الذين يدينون بالإسلام فى كل قارات الدنيا غربا أو شرقا شمالا أو جنوبا إنما تجمعهم رابطة الإسلام وكلمة التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .

إن كلمة التوحيد بمعناها الشامل ومفهومها العام إنما هى الشعور بالوحدة العامة والعروة الوثقى لا إنفصام لها بين جميع المسلمين وكافة الموحدين . تربط القلوب وتطمئن النفوس ألا بذكر الله تطمئن القلوب .

ولخطورة الوحدة وجمع الكلمة وعلو منزلتها وشرف مكانتها تعهدها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولما شاهد انحرافا عنها غضب وقال : أترجعون بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض .

مسلمون نعم

مسلمون نعم . قوميون لا . لأنه حين ترفع شعار القومية فإنما تعلن بذلك العصبية والعنصرية فأنت للتميز وأنت صاحب الحضارة وأنت المفاخر بالأحساب والإنساب والمال والولد ، والأحجار والأمجاد وما الفائدة التى يجنيها أى شعب من اجترار حضارة لم ترتبط بمنهج ربها ولم تسلم زمامها إليه فكانت من المهلكين وما الفائدة من الصراخ فى واد ورفع شعارات لها بريق ولمعان ولكنها لا تسمن ولا تغنى من جوع لأنها تفرق ولا تجمع وتبدد ولا توحد وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية وتفرق القلوب يستدعى تفرق الأوطان .

الدعوة الدينية وأثرها فى بناء الأمم

(إن الدعوة الدينية تزيد الدولة فى أصلها قوة على قوة العصبية التى كانت لها من عددها والسبب فى ذلك أن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذى فى أهل العصبية وتفرد الوجهة إلى الحق فإذا حصل لهم الاستبصار فى أمرهم لم يقف لهم شىء لأن الوجهة واحدة والمطلوب متساو عندهم وهم مستميتون عليه .

وأهل الدولة التى هم طالبوها وإن كانوا أضعافهم . فأغراضهم متباينة بالباطل . وتخاذلهم لتقية الموت حاصل . فلا يقاومونهم وإن كانوا أكثر منهم بل يغلبون عليهم ويعاجلهم الفناء بما فيهم من الترف والذل)[1] .

لماذا الإسلام

أما لماذا الإسلام ؟

إن من قوانين الحياة أن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وماتناكر منها اختلف والإسلام دين الحياة وللحياة، يعبد للحياة طريقها ويمهد لها سبلها « يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون »[2] .

وحين خالط الإسلام والإيمان شغاف قلوب أهل المدينة وهاجر إليهم

---

(١) مقدمة ابن خلدون — الفيلسوف المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون ط دار الشعب ص/ ١٤٢ — الفصل الخامس

(٢) الأنفال — آية — ٢٤

أهل مكة تكون فوراً من المدنيين والمكيين مجتمعا إسلاميا غاية فى التماسك والصلابة مؤلف القلوب موحد الصفوف متكامل الأخوة والتآخى آثروهم أعظم الإيثار وأحبوهم كل الحب حدث هذا فى المجتمع الإسلامى المدنى هذا المجتمع الذى كان قبل أن يهتدى لنور الإسلام ويعتز بحبله المتين . مجتمعا تملؤه ظلمات الضلالة والهمجية والجهالة والموبقات ، مجتمعا ماديا لا يعرف التراحم ولا الترابط ولا الإيثار بقدر ما يعرف الجشع والخمر والربا الفاحش والطبقية المزعجة .

وهذا الذى حدث يمكن حدوثه فى كل زمان ومكان . حين ترتفع كلمة لاإله إلا الله . محمد رسول الله ، حين تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى .

وإنما قام المجتمع الإسلامى موحداً لأن الإسلام يتميز بحقائق ثلاثة :

أولا : حقيقة الإسلام الأخلاقية والتى عنوانها « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

ثانيا : حقيقة أن الإسلام قد صاغ أقوى معايشة إجتماعية تجعل الفرد المسلم لا يحس بالغربة أو الضياع كما أن المجتمع لا يجعل من الفرد المسلم كيانا مهملا أو تافها .

ومن هنا فإن هذه الصياغة الاجتماعية تأخذ مكانها الخالد فى المجتمعات بصورة لم تستطع الوصول إليها أكثر المجتمعات ادعاء للتقدم أو الحضارة .

ثالثا : حقيقة أن الجماعة الإسلامية لا تنظر من جانب ضيق أو سطحى إلى منفعة قريبة أو بعيدة أو ماديات متوقعة أو غير متوقعة ولكن تنظر للخير العام للإنسان فترجوا له الخير وتتمنى له الهداية وتدعو الإنسان

لهذا الإسلام لأنه دين الفطرة والفطرة تشمل البشر جميعا . ومن أجل أى إنحراف عن هذه الفطرة كانت حكمة إرسال الرسل والدعاة حراسة لها وتزكية .

الوطنية تاريخا

الأثرة والأنانية وحب الذات آفات من آفات النفس ويدفع إلى هذه الآفات ما يلقى فى النفس من نزعات شيطانية مادية تجعل الفرد يعيش فى عزلة عن كل شيء حتى عن نفسه ومجتمعه وتصبح الوطنية مجرد شعارات يتشدق بها وأكروبات يستهوى بها السفج فهو حين ينزل من الطائرة وقد ترك الوطن يعانى فى حرب أو سلم أو غلاء أو نكبات تراه يخر ساجداً يقبل بلاط المطار النظيف الذى لا يحمل ذرة غبار تعفر هذا الجبين المرفه وهذا الجسد المترهل من التخمة والذى أثقله الدعة والكسل والهروب من التبعات .

وهذ الذى يهرب بعيداً عن وطنه الإسلامى بفكره وعقله وجسده وذاته هل هناك قانونا وطنيا يؤثمه ؟ ، ولكنه إسلاميا يأثم بهذه الغربة وهذا الهروب .

إن ما تراه إيثاراً للسلامة وتخفيفا من تحمل التبعات والأعباء قد أغلق فى وجوهنا أبواب الاجتهاد والفكر حتى فى بديهيات المسائل وأوليات الأمور وأصبح « التقليد » فى كل مناحى الحياة سمة بارزة وعلامة واضحة كأنها مصكوكات ضربت على العقول والقلوب « بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » .

فالوطنية مهما توسعنا فى مدلولاتها فهى تعبير ضيق وتضييق لواسع وفى أغوار التاريخ مثل هذه الأفكار الضحلة .

« حيث أن فكرة الوطنية كانت سائدة فى اليونان و كانت فكرة العالمية التى نادى بها حكماء كسقراط شاذة لم تنل أنصاراً أو انتصاراً و كان نظام أرسطو الأخلاقى مبنيا على التمييز بين اليونانى وغير اليونانى و كان حب الوطن يتقدم فضائل الأخلاق وقد انتقلت الفلسفة اليونانية والثقافية والنفسية إلى الروم ولم يكن الروم بطبيعتهم الأوربية يختلفون عن اليونان فى الخصائص الفطرية كثيرا بل هناك شبه عظيم بين الأمتين ، إيمان بالمحسوس وغلو فى تقدير الحياة وشك فى دين ، وضعف فى يقين ، واضطراب فى العقيدة ، واستخفاف بالنظام الدينى وطقوسه واعتزاز بالقومية وتعصب لها وحب مفرط للوطن زد إلى ذلك كله اعتدادا بالقوة ، واحتراما زائدا لها يبلغ العبادة والتقديس(١) .

جذور الوطنية ومفهومها

إن انكسار الكنيسة اللاتينية سبب قوة العصبية والقومية والوطنية والاعتداد الشديد بالشعب والموقع الجغرافى من خصائص الطبع الأوربى وقد سرت فيه العنصرية والوطنية مسرى الروح وجرت منه مجرى الدم وأصبح طبيعة ثانية له ولكن النصرانية عادت وقهرت هذه الطبيعة لأنها على علاتها وبرغم ما طرأ عليها من التحريف والتبدل — لا زال عليها مسحة من تعاليم المسيح وفيها أثارة من علم ، والدين السماوى مهما تحرف وتغير لا يعرف الفرق المصطنعة بين الإنسان والإنسان ولا يفرق بين الأجناس والألوان والأوطان فجمعت النصرانية الأمم الأوربية تحت لواء الدين

---

(١) إرجع إلى « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٦١ للعلامة أبى الحسن على الحسنى الندوى معتمد دار العلوم . ندوة العلماء بالهند

وجعلت من العالم النصرانى عشيرة واحدة وأخضعت الشعوب الكثيرة للكنيسة اللاتينية (١) .

لذلك يجب أن يتحدد مفهوم الوطنية فى الإسلام وهى أنها ليست تعصباً لجنس أو مفاخرة بنسب أو تمايزاً بلون أو مباهاة بحضارة أو إقراراً لقومية أو معبراً لأهواء النفوس وشهوات المستغلين إن الوطنية فى الإسلام مدخل إلى العالمية وحقبة فى أول الطريق إلى الشمول والعموم والتكامل حتى لا تصبح الدول الإسلامية لقيمات يسهل إبتلاعها وازدرادها بل وهضمها .

واقع مر أليم

ما نراه فى عالم الناس اليوم بعض آثار هذه الثغرات التى تعبر عن خواء فى العقيدة وضحالة فى الفكر ؛ فالقومية أو الوطنية لا تخرج عن أنها عاطفة لا يحدها عقل أو نظام أو قانون ليتمكن أصحابها من الإنفلات من ضوابط الشرعية وإقرار الواقع الأليم الذى تغذيه الصليبية وتحركه اليهودية وتدعمه العلمانية(٢) .

---

(١) أرجع إلى المصدر السابق — ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين .

(٢) لنـــدن — وكالات الأنبـاء — أكد المفكر الفرنسى الشهير (روجن جارودى) أن التدخل الإسرائيلى فى لبنان هو السبب العميق للفوضى التى تسود لبنان حاليا وحذر فى حديث لمجلة « المجلة » أن أحداث لبنان نموذج لما تريد إسرائيل أن تحققه فى جميع الدول العربية وقال الوثيقة التى تكشف عن مخططات إسرائيل ضد العالم العربى خلال عقد الثمانينات والتى نشرت فى صحيفة ليفونيم التى تصدر فى القدس عن المنظمة الصهيونية العالمية الخ .

فى الوقت الذى لاتنتهى عوامل التفكك والتفرقة والتجزؤ والانفصال فى العالم الإسلامى نرى محاولات الترابط والوحدة والإلتقاء بين الدول غير الإسلامية ويتلسون أوهن الأسباب لقيامها فهذه سوق أوربية مشتركة وهذا حلف الأطلسى وذاك حلف الأطلنطى وآخر حلف وارسو وكلها قوى مؤثرة ؛ والذى يبعث على الأسى أن الذى ندعوه للحفاظ على مصالح المسلمين يكون دائما من غير المسلمين ولا نفكر إطلاقا فى أن نصبح من بين هذه القوى المؤثرة بل نكتفى دائما بالذهول والدهشة واعطاء الظهور للأحداث التى تركل هذه الظهور بالأقدام .

وأيضا فنحن لم نفكر فى إعلان هويتنا الإسلامية ونعلن ذلك صراحة أننا أمة واحدة وأن تعداد أمتنا ٦٨٠ ستمائة وثمانون مليون مسلم وأننا لسنا فى حاجة إلى أى مساعدات من أعداء الإسلام مادية أو إقتصادية أو سياسية « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » .

سقوط القومية

ليس مقصوداً بالقومية كما وقر فى الأذهان وكأنهم خطأ أنها « الجنس » ولغة يقال : قام يقوم قياما فهو قائم لجمعه قيام ، وتأتى اشتقاقات القيام وصفا وعلى هذا قوله تعالى « ذلك الدين القيم » وقوله تعالى « ولم يجعل له عوجاً — قيما » وقوله « ذلك دين القيمة » فالقيمة هنا اسم للأمة القائمة بالقسط المشار إليهم بقوله تعالى « كنتم خير أمة » وقوله « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله » (١) .

---

(١) المفردات فى غريب القرآن — الراغب الأصفهانى .

ويقول العلامة محمود شاكر :

فالقومية مشتقة من قوم وكلمة قوم يقصد بها الجماعة الواحدة التى ترتبط مع بعضها بالأفكار والعقيدة وليست كما تستعمل اليوم ويقصد بها التبعية إلى جنس واحد وإذا عدنا إلى القرآن الكريم وهو المرجع الأول فى لغتنا رأينا أن كلمة قوم ما قصد بها مطلقا إلا الجماعة الواحدة التى تحمل فكرة واحدة يقول الله سبحانه وتعالى « والله لا يهدى القوم الكافرين » فى مواضع عديدة وسور كثيرة » (١) .

خاتمـــة

نستطيع أن نؤكد أن فكرة القومية ضعيفة البنيان مهتزة الأركان وهؤلاء الذين قاموا بتلقينها إلينا لا ينهضون بها بل العكس يفعلون .

الاتحاد السوفيتى ولننظر « الاتحاد » يقوم على عناصر شتى ومن هذه العناصر مسلمون لحمة وسدة ، والولايات المتحدة الأمريكية « ولايات ومتحدة » أفلا تبصرون وهذا هو : « الكيان الصهيونى » هل أنكر أنه توراتى دينى تلمودى وأن الثلاثة ملايين مشرد يهودى استطاعوا أن يتوحدوا تحت نجمة إسرائيل ، ليرتفع علمهم على العالم بأسره ومنه الإسلامى!.

هل إلى وحدة من سبيل ؟ هل إلى يقظة من رقاد ؟

هل إلى صحوة من سبات ؟

إنا لمنتظرون — اللهم قد بلغت — اللهم فاشهد .

السيد عبد الرحمن الجندى
معيد بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية

---

(١) العالم الإسلامى ومحاولة السيطرة عليه — العلامة محمود شاكر .